و[منها أنه] [(١)] ركب يوماً للصَّيْد في رمضان، فاجتاز بين الحربية ودار القز ـ محلَّتين بالجانب الغربي من بغداد ـ فرأى شيخاً كبيراً، معه قدحٌ فيه طبيخ قد أخذه من العتَّابيين، وهو يريد أن يدخل الحربية، وكان في كلِّ محلة دار مضيف [في رمضان، فقال له: يا شيخ، ممن أنت؟ قال: من الحربية. قال: أما عندكم دار مضيف؟ قال: بلى][(١)]. قال: فلِمَ تأخذ من الموضعين؟! فبكى الشيخ، وقال: والله ما أخذتُ من المحلَّتين، وإنما أنا رجلٌ كان لله عليَّ نعمة، وكان لي مال كثير، فافتقرت، وذهب المال والولد وأستحيي من أهل محلَّتي أن آخذ من دار المضيف، فأنا أمضي إلى المحلَّة التي لا أعرف فيها، فآخذ الطَّعام في القدح، وآتي إلى باب الحربية، فإذا أذن المغرب، ودخل النَّاس في الصَّلاة دخلتُ بيتي ولا يراني أحد. فبكى الخليفة، وقال لنفسه: ويحك يا منصور! ما جوابك غداً إذا سألك الله عن هذا الفقير المحتاج؟ ثم أعطاه ألف دينار، وقال: إذا نفدت، فتعال إلى باب البَدْرية. فأخذ المال، ومن فرحته انشقَّ قلبه، فعاش عشرين يوماً، ومات، وطولع الخليفة، فقيل له: ما نقص منه غير دينار واحد، فقال: إن كان له ورثة، فادفعوه إليهم، وإلا فأذنت لكم أن تتصدَّقوا به في الحربية على الفقراء، فهذا مال أخرجناه لله فلا نرجع [فيه، ولا يدخل][(١)] إلينا.

وكانت وفاته [في هذه السنة]، وحمل إلى الرّصافة، وحزن عليه الخَلْقُ حُزْناً عظيماً لإحسانه إليهم، وعمل له العزاء ببغداد والبلاد كلها ثلاثة أيام، وولي ولده عبد الله.

الباب التَّاسع والثلاثون في خلافته، ولقبه المستعصم بالله

السنة الحادية والأربعون وست مئة

فيها تردَّدت الرُّسُل بين الصَّالح أيوب وعمه الصَّالح إسماعيل في الصُّلْح، وقدم الشَّرف بن التِّبْنِيني، والأصيل الإسعردي الخطيب، وأُطلق المغيث بن الصالح أيوب، وركب، وخُطِبَ للصَّالح أيوب بدمشق، ولم يبق إلا أن يتوجَّه المغيث إلى مِصْر، ورضي الصَّالح أيوب ببقاء دمشق على عَمِّه الصَّالح بعد أن يسلِّم إليه ولده عمر

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

المغيث، فأفسد [السامري][1] وزير إسماعيل الحال، وقال له: هذا خاتم سليمان، لا تخرجه من يدك، فتعدم المُلْك. فتوقف الأمر، ولم ينتظم صلح، ومنع المغيث من الركوب، وحُبِسَ في بُرْج القلعة، وفسدت الأحوال.

وكَتَبَ الصالح أيوب إلى الخُوارَزْمية، فعبروا الفرات، وانقسموا قسمين: قسم جاؤوا على بقاع بعلبك، وقسم على غوطة دمشق، ونهبوا وسبوا وقتلوا، وسدَّ إسماعيلُ أبوابَ دمشق، ونزلوا غَزَّة.

قال المصنف رحمه الله: وكنتُ حينئذٍ بديار مصر، فقدمت الإسكندرية في هذه السنة، فوجدتها كما قال الله تعالى: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] معمورة بالعلماء، مغمورة بالأولياء [الذين هم في الدنيا شامة][1] كالشيخ محمد القَبَّارِي والشاطبي وابن أبي شامة، وهي أَوْلى بقول القَيْسراني في وصف دمشق: [من البسيط]

أرضٌ تَحُلُّ الأماني من أماكنها ... بحيثُ تجتمع الدُّنيا وتفتَرِقُ
إذا شدا الطَّيْرُ في أغصانها وقفت ... على حدائقها الأسماعُ والحَدَقُ

[قلتُ:][1] وسألوني الجلوس، فجلست بها مجلسين، تاب فيهما نحو من ألفين، فلما عزمت على العَوْد إلى القاهرة قام بعضُ أفاضلها، فأنشد: [من الطويل]

ذَكَرْتُمْ فراقاً فاستهلَّتْ مدامعي ... وزادَ لهيبُ النَّارِ بين ضلوعي
وأصبحت مَيْتاً من سماعِ فراقكُمْ ... أودُّ بأنِّي لم أكن بسميعِ
فيا أهلَ هذا الثَّغْر ترضون غَيْبَةً ... لشمسِ علوم آنستْ بطُلوعِ
ففي شَمْسَنا قبل الفراقِ هُنَيَّةً ... فلَسْنا على علمٍ بوقتِ رجوعِ
فقد وقفتْ شمسُ السَّماء ليوشع ... وما ذاك من أفعالها بشنيعِ
فنحن ضيوف والقَراءُ ثلاثةٌ ... وَجُودك يا مولى الأنامِ شفيعي

فكان البيت الأخير هو الباعث على أن عزَّزْتُ لهم بمجلس ثالث، ولم أقدر أنْ أُسافر عنهم إلا ليلاً، لأنهم وجدوا بي ولا كوَجْد المجنون بليلى، يا هل لليلاتٍ بجَمْع عودةٌ[2].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) هو صدر بيتٍ، عجزه: أم هل على وادي منًى من نظرةِ.
سلف في ترجمة ابن الجوزي ص١١٤ من هذا الجزء. وهو لمهيار الدَّيْلَمي في «ديوانه» ج١/ ١٥٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة١٩٢٥م.

وفيها صالح صاحب الرُّوم التَّتر على أن يدفع إليهم كلَّ يوم ألف دينار، وفرساً، ومملوكاً، وجارية، وكلب صيد، وهذا هو ابنُ علاء الدين، وكان ناقصَ العقل، فاتكاً، يلعب بالكلاب والسِّباع، ويسلِّطها على النَّاس، فعضَّه سَبُع، فمات.

وفيها توفي

النجم خليل بن علي بن الحسين[١]

الحموي، الحنفي.

قدم دمشق، وتفقه بها [على مذهب أبي حنيفة][٢] وخَدَمَ المعظَّم، وأرسله ابنُ شُكْر إلى بغداد، ودرس في الرَّيْحانية بدمشق، وناب عن الرَّفيع في القضاء، وتوفي في ربيع الأول، ودفن بقاسيون.

محمد بن عَقِيْل بن كَرَوَّس[٣]

الجمال، محتسب دمشق.

كان رجلاً كَيِّساً، متواضعاً جَلْداً، وتوفي في شوال، ودفن بداره بدمشق.

يونس بن ممدود[٤]

ابن أبي بكر بن أيوب، الجواد، مظفر الدين.

كان قد جاء إلى المعظَّم لما وقع بينه وبين الكامل، فأحسن إليه، ثم عاد إلى مِصْر، ولما مات الأشرف جاء مع الكامل إلى دمشق، وأقام [بها][٢] حتى مات الكامل، وملَّكوه دمشق، وكان جَوَاداً كما سمي، يحب الصَّالحين، ويحسن الظَّنَّ بالفقراء، إلا أَنَّه كان حوله من ينهب النَّاس، ويظلم، وينسب ذلك إليه، وقد ذكرنا تقلُّبَ الأحوال به

---

(١) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٣٩٧، و«الجواهر المضية»: ٢/ ١٨٠ ـ ١٨٢، و«الدارس»: ١/ ٥٢٣ـ٥٢٤، و«الطبقات السنية»: ٣/ ٢٢٠.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٦٣٠، و«الوافي بالوفيات»: ٤/ ٩٨، و«شذرات الذهب»: ٥/ ٢١٣.

(٤) له ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٨٤، و«العبر»: ٥/ ١٧١، و«الوافي بالوفيات»: ٢٩/ ٤٠٢-٤٠٣، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٣٤٨.

وأَنَّ أهله لم يقبلوه، فقصد الفرنج، فقبلوه، وخدموه، وحَضَرَ معهم نوبة قلنسوة؛ ضيعة من أعمال نابُلُس، قتلوا فيها ألف مسلم وهو نائم لم يتكلَّم كلمةً، وخاف منه الصَّالح إسماعيل، فبعث إليه ناصر الدين يغمور ليحتال عليه، ويحمله إلى دمشق، فقال: إنهما اتَّفقا على الصَّالح. ثم احتال الصَّالح على الجواد حتى قبضه وحبسه في عزَّتا وابن يغمور في قلعة دمشق، وكان الوزير [السامري][1] قد قصده، وطلب الفرنجُ الجوادَ، وقالوا: لا بُدَّ لنا منه، فأظهر أَنَّه قد مات، وأهله يقولون: إنه خنقه، والله أعلم، وكان ذلك في شوال، ودفن بقاسيون في تُرْبة المعظم.

وأما ابن يغمور، فأقام محبوساً بقلعة دمشق حتى مَلَكها الصَّالح أيوب، وبَعَثَ به ابنُ شيخ الشيوخ إلى مِصْر، فحبسه الصَّالح أيوب في الجُبّ، ثم شنق بعد مدَّة هو وأمين الدَّوْلة على قلعة القاهرة، [وسنذكرهما][1].

أبو بكر الشعيبي[2]

من أهل مَيَّافارِقِين.

كان صالحاً زاهداً، بعث إليه غازي مراراً يسأله الإذن [في زيارته][1]، فلم يأذن له، وقيل له: هل تطرق البلادَ التترُ؟ فرفع رأسه إلى السَّماء، وأنشد: [من الطويل]

وما كلُّ أسرار القلوب مباحةٌ ولا كلُّ ما حَلَّ الفؤادَ يُقالُ

وخرج إلى الشعيبة قريته، وقال: احفروا لي ها هنا، فبعد يومين أموت. فماتَ بعد يومين.

السَّنة الثانية والأربعون وست مئة

فيها عُزل القاضي الرَّفيع، وسببه أَنَّه كَتَبَ إلى الصَّالح إسماعيل يقول: قد حملتُ إلى خزانتك من أموال النَّاس ألف ألف دينار. فقال الصالح: ولا ألف ألف دِرْهم. وأوقف وزيره [السامري][1] على ورقته ـ وكان الله قد سَخَّر الصَّالح إسماعيل لوزيره، فلو قال له: مت. لقال لداعي الموت: أهلاً ومرحباً ـ وأنكر الوزير، فقال الرَّفيع: أنا

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٣٤٩.